

الفصل الخامس

القرن السابع الهجرى.. قرن الطرق الصوفية

صورة لوجه مصر في هذا القرن:

إذا استعرضنا تاريخ مصر خلال هذا القرن وجدنا أنه تاريخ صراع مرير على الحكم بين حكام لا تربطهم أى صلة بالمحكومين، اعتبروا مصر «وسية» ابن البلد فيها لا رأى له ولا صوت مسموع، عليه أن يدفع الضرائب وأن يفعل ما يؤمر به فقط.

ودارس التاريخ يشعر أن هذا الشعب، قد ظلم إلى حد كبير، وابتلى بأغرب الحكام، لكن الأغرب من هذا هو صبر هذا الشعب إزاء الظلم المفروض عليه من هؤلاء الحكام، فطوال حكم الأيوبيين والمماليك في هذا القرن لم ترتفع أصوات تذكر في وجه الحكام الظالمين، اللهم إلا ثورة الكورافى^(١). وخلال القرن السابع الهجرى، حكم مصر سبعة عشر حاكماً. ستة من بنى أيوب، وأحد عشر مملوكاً.

- ١ - الملك العادل سيف الدين أبو بكر الأيوبي من سنة ٥٩٧ هـ إلى ٦١٥ هـ.
- ٢ - الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر الأيوبي ٦١٥ هـ - ٦٣٥ هـ.
- ٣ - الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل محمد ٦٣٥ هـ - ٦٣٧ هـ.
- ٤ - الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد ٦٣٧ هـ.
- ٥ - الملك توران شاه ٦٤٧ هـ - ٦٤٨ هـ.
- ٦ - شجرة الدر ٦٤٨ هـ - ٦٥٧ هـ.
- ٩ - الملك المظفر سيف الدين قطز المعزى ٦٥٨ هـ - ٦٧٦ هـ.
- ١٠ - الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ٦٥٨ هـ - ٦٧٦ هـ.
- ١١ - الملك السعيد أبو المعالى محمد بن الملك الظاهر بيبرس ٦٧٦ هـ - ٦٧٨ هـ.
- ١٢ - الملك العادل سيف الدين سلامش بن الملك الظاهر بيبرس ٦٧٨ هـ.
- ١٣ - الملك المنصور قلاوون ٦٧٨ هـ - ٦٨٩ هـ.
- ١٤ - الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون ٦٨٩ هـ - ٦٩٣ هـ.
- ١٥ - الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون (المرّة الأولى) ١٦٩٣ هـ - ٦٩٤ هـ.

(١) سنتكلم عن ثورة الكورافى عند الحديث عن الأحوال السياسية لمصر في القرن السابع الهجرى.

١٦ - الملك العادل كتبها ٦٩٤ هـ - ٦٩٦ هـ.

١٧ - الملك المنصور حسام الدين لاجين بن عبدالله المنصورى ٦٩٦ هـ - ٦٩٨ هـ.

١٨ - عودة الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطة مرة ثانية ٦٩٨ هـ - ٧٠٨ هـ.

ولقد كان الحكم لعبة في أيدي المماليك في هذا القرن.

فمثلاً نجد أن مماليك الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، زوج شجرة الدر، هم الذين اتفقوا وأقروا تعيينها ملكة، وهم الذين عرضوا عليها الزواج بعز الدين أيبك فوافقت وتزوجته.

وهذا هو الظاهر ببيرس أقوى المماليك، بدأ مؤامرة لاغتيال سيف الدين قطز بعد عودته منتصراً، من عين جالوت ليتولى ببيرس الحكم.

إننا نجد أنفسنا أمام سلسلة طويلة من القتل والتدمير من أجل شهوة الحكم والسيطرة. والمؤرخ المنصف لابد أن يذكر من ناحية أخرى أن هؤلاء الحكام من بنى أيوب، والمماليك لعبوا دوراً كبيراً في انتصارات حربية عظيمة غيرت مجرى تاريخ العالم بأسره، لكن ينبغي ألا يغيب عن ذهننا أبداً، أن هؤلاء الحكام الأقوياء هم أنفسهم الذين كونوا دولة داخل الدولة، مستقلة، تنعم بكل شيء والشعب المصرى يقاسى الضرائب الباهظة من أجل الحروب المستمرة.

الأهمية التاريخية للقرن السابع الهجرى في مصر من الناحية العسكرية:

كان القرن السابع الهجرى في مصر من القرون المثيرة، التي لم تؤثر في تاريخ مصر فحسب، بل أثرت في تاريخ العالم بأسره، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً - حدث في هذا القرن هزيمة التتار في موقعة عين جالوت ٦٥٨ هجرية ١٢٦٠ م في عهد سيف الدين قطز، وهذا وهبت مصر الحياة للعالم كلها خصوصاً أوروبا التي أنقذتها مصر من إعصار مغولى عنيف.

ثانياً - في هذا القرن أنقذت مصر الإسلام من خطر الصليبيين ومنعت حدوث ردة أخرى ونكسة أندلسية ثانية.

ثالثاً - صارت مصر مركزاً للخلافة العباسية في هذا القرن، ففي زمن المستعصم آخر الخلفاء العباسيين هجم هولاكو على بغداد، وقتل الخليفة سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م، وبهذا زالت الخلافة العباسية من بغداد التي ظلت تحكم العالم الإسلامى قرابة خمسة قرون، وبدأ ظهور الدول الإسلامية المنفصلة عن بغداد التابعة لحكم الخلافة العباسية.

وحين سقطت بغداد فر أحد أبناء الخلفاء إلى مصر، فرحب به الظاهر ببيرس ونادى به خليفة للمسلمين ولقبه بالمستنصر، وهكذا صارت مصر مركزاً للخلافة العباسية، وظلت هكذا ردةً من الزمن، حتى استولى عليها السلطان سليم العثمانى.

رابعاً - حدث في هذا القرن حدث من الأحداث الكبيرة في تاريخ الإسلام والمسلمين، فقد تولت شجرة الدر أول وآخر امرأة تحكم دولة إسلامية وإن كان حكمها لم يتجاوز ثمانين يوماً. هذه الأحداث الهامة تؤكد لنا بجلالة ووضوح تامين، أن هذا القرن له أهمية تاريخية خاصة، ولعل أحسن ما يصور هذه الأحوال، ما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٧ هـ^(٢)، حيث يقول: لم يقع على المسلمين أذى وشدة من [بعد] النبي ﷺ إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه إلى الآن هذا العدو الكافر (التر) وقد وطئوا بلاد ما وراء النهر، وملكوها وخربوها، والعدو الآخر (الفرنج) قد ظهر من بلادهم في أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال، ووصلوا إلى مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها. فإننا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وواضح من هذا النص أن العروبة والإسلام كانا في خطر شديدين لدرجة أن ابن الأثير يقول إننا لله وإنا إليه راجعون، فلم تكن مصر وحدها التي تعاني الخطر وإنما العالم العربي وخلافته في بغداد بعد أن سقطت على يد المغول.

ثم ناهيك بالخلافات المستمرة بين حكام مصر، وأمرائها من أجل شهوة السلطة على مقاليد الحكم، «فمملوك يقتل سيده وأستاذه ويتولى مكانه فلا يلبث أن يشب عليه هو أيضاً مماليكه والمقربون إليه فيقتلوه، أو يخلعوه، ويولوا غيره، وهلم جرا، والسبب في ذلك يرجع فيما أعتقد إلى أن المماليك لم يقروا باستحقاق أى إنسان غيرهم بالولاية من الوجهة الشرعية، وإنما كانوا يرون أن السلطنة أو ولاية أمر المسلمين هي حق لكل من توفرت له القوة، وواتته الفرصة، أو هيأت له الظروف الجلوس على أريكة الملك»^(٣).

يقول الدكتور على صافي حسين «ومعنى هذا أن المماليك كانوا يتنازعون الولاية فيما بينهم، كأسلافهم الأيوبيين، غير أنه لم يكن ليؤدى إلى ضعف الدولة وكسر شوكتها، وتمكين الأعداء من التغلب عليها، كما كانت في عهد بنى أيوب، لا بل إن دولة المماليك الأتراك كانت رغم تشاحن رؤسائها وتنازع أمرائها قوية. تهزم كثيراً ولا تنهزم إلا قليلاً. وقد كان عصر المماليك استمراراً للعصر الأيوبي من حيث الحرب والقتال، حيث ظلت الحروب الصليبية والتتارية طيلة هذا العصر على أشدها»^(٤).

وهذه الحروب اكتوى بنارها الشعب المصرى فقد كلفته الكثير من التضحيات، وزادت من أعبائه وسوء أحواله، واضطراب معيشتة نتيجة للمشاحنات المستمرة بين الأمراء.

ومع ظلم الحكام للرعية نلاحظ صبر الشعب المصرى على حكمه في هذا القرن، فلم تحدث ثورات، تستحق الذكر سوى حركة بسيطة قام بها شخص يدعى الكوراني «ففى عهد سيف الدين قطز ظهر (الكوراني)، وهو شاب طائش، خرج على الدين بسبب بدع نسبت إليه، ثم جدد إسلامه بعد أن ضرب

(٢) الكامل لابن الأثير: حوادث سنة ٦١٧.

(٣) كتاب ابن دقيق العيد للدكتور على صافي حسين ص ١٦.

(٤) كتاب ابن دقيق العيد للدكتور على صافي حسين ص ١٦.

ضرباً مبرحاً، وأطلق من الاعتقال، فأقام بالجبل الأحمر، في أوائل حكم الظاهر بيبرس، وأظهر الزهد وسكن قبة الجبل، وتردد عليه الغلمان فحدثهم في القيام على أهل الدولة، وأقطعهم الإقطاعات وكتب لهم رقاعاً بها، كما لو كان صاحب الأمر الحقيقي في البلاد، وبدأت الثورة تحت جنح الظلام، وكان العسكر قد علموا بأمرها، فأحاطوا بالثوار، وما أنبلج الصبح حتى قبضوا عليهم جميعاً وصلبهم خارج باب زويلة، فسكنت الثائرة وكان ذلك في نهاية سنة ٥٦٨ هـ (١٢٦٠ م) (٥).

وكانت «تلك الثورة عظيمة الأثر في سياسة بيبرس، فقد حقد على الشيعة وعلى كل من يمت إليهم بصلة، وذلك لأن «الكوراني» اتخذ «آل علي» شعاره في ثورته، وأظهر أنه من الشيعة المتطرفين، وقد ظهرت بوادر سياسة بيبرس ضد الشيعة عامة، بعدما سقطت الدولة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م، ورغب في إحياء الخلافة العباسية بمصر لتدعيم مركزه دينياً وسياسياً، وقطع الطريق على العلويين الذين جاهدوا لنيل هذا الشرف منذ سقوط الدولة الفاطمية، ولكن دون جدوى» (٦).

من ذلك يتضح لنا سوء الأحوال السياسية في مصر نتيجة للخلافات الشخصية المدمرة بين أفراد الطبقة الحاكمة في البلاد.

أما الجانب المشرق الذي ينبغي أن يذكر للمماليك، فهو أنهم أصحاب الفضل الأكبر في هزيمة التتار على ما ذكرنا، ثم كان لهم الفضل غير المذكور في اعتناق المغول الإسلام، ثم كان في عهدهم نهاية الحروب الصليبية في الشرق.

ملاحح الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر في القرن السابع الهجري:

أورد المقرئى تقسيماً للطبقات الاجتماعية في عهد المماليك كالآتي:

- ١ - أهل الدولة.
- ٢ - أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية.
- ٣ - الباعة وهم متوسطو الحال من التجار وأصحاب المعاش من السوق.
- ٤ - أهل الفلاح وهم أرباب الزراعة والحراث وسكان الريف.
- ٥ - الفقراء: وهم جل الفقهاء وطلاب العلم.
- ٦ - أرباب المصالح والأجر وأصحاب المهن.
- ٧ - ذوو الخصاصة والمسكنة الذين يتكففون الناس (٧).

من هذا التقسيم لطبقات المجتمع في هذا العصر، يتضح لنا أن الشعب المصرى أغلبه، كان من الفقراء: من الفلاحين والأجراء والعمال بينما الحكام وأهل الدولة كانوا يعيشون في نعيم مقيم.

(٥) تفاصيل ذلك في كتاب السلوك للمقرئى ج ١ ص ٤٤٠. وكتاب حياة السيد البدوى لإبراهيم نور الدين ص ٩٨.

(٦) حياة السيد البدوى لإبراهيم نور الدين ص ١٩٨.

(٧) عن كتاب تاريخ مصر الاجتماعى لأحمد زكى بدوى ص ٢٠٦.

ولقد أدى سوء الأحوال الاجتماعية في البلاد إلى سوء أشد في الأحوال الاقتصادية، فانتشر الفقر، وعمت البطالة «وبالجمل» فقد كثر في هذه الفترة الفقر، واشتدت الخصاص، وعظم الكرب، وجاع الناس في أكثر الأحيان، حتى أكلوا الميتة، واستمروا لحم الآدميين»^(٨).

أضف إلى ذلك «ما كان يرتكبه الأمراء وأصحاب الشأن في الدولة من ظلم الناس واحتكار الأموال»^(٩).

ثم «تزييف الأموال والتلاعب بها، والاستيلاء بالقوة والبطش على ما تنتجه أرض الفلاحين والزراع من الثمرات، وكثرة الضرائب على الأفراد والعقارات»^(١٠).

وأشد قسوة من ذلك اجذاب الأرض الزراعية في فترات عديدة من هذا القرن، فمثلا في عهد الملك العادل سيف الدين الأيوبي حدث بلاء عظيم، فقد هبط منسوب النيل سنة ٥٩٧ هـ - ١٢٠٠ م، وأدى ذلك إلى قحط شديد لم تعرف مثله البلاد حتى أن الناس كانت تأكل بعضها البعض.

يقول المؤرخ المصري ابن إياس في كتابه بدائع الزهور: «استمر النيل على ذلك ثلاث سنوات متوالية، ولم يزد غير عشرة أذرع ثم يهبط، فعدمت الأقوات في الديار المصرية، فصار الناس من شدة الجوع إذا قوى أحدهم على صاحبه يذبحه بيده ويأكله من شدة الجوع، وهذا كله بعد أن فرغت الكلاب والقطط والوحوش والطيور، وقد تناهى سعر القمح في السنة الثالثة إلى مائة دينار لكل أردب.. ولا يوجد»^(١١).

وهكذا مات آلاف المصريين خلال هذه السنوات الثلاث جوعاً ومرضاً ومات الكثير من الأطباء، خلال هذه الفترة، يدعون إلى زيارة المريض، وهناك في داره يقتله المريض الجائع ليأكل لحم طبيبه، حتى النساء الغواسل لم يسلمن من الذبح لأكل لحومهن، وظل هذا الحال مدة ثلاث سنوات على ما قلنا، ثم هدأ وظهرت الغلال ثانية وانخفضت الأسعار انخفاضاً كبيراً، نتيجة اعتدال منسوب المياه، وقلة السكان بسبب موت كثير منهم أثناء هذه المجاعة الفظيعة.

ولقد كان القرن السابع الهجري في مصر في أغلب فتراته سيئاً في الأحوال الاقتصادية، نتج عنه تدهور وانحطاط في الأخلاق، وانتشرت البدع والانحرافات خلاله.

وحاول بعض الحكام الأقوياء أن يتصدوا لهذه الانحرافات فوجدنا مثلاً الظاهر بيبرس قد «كتب بإزالة الخمر وإبطال الفساد، والحواطي، من القاهرة ومصر، وجميع أعمالها فظهرت كلها من المنكر، ونهبت الخانات التي جرت عادة أهل الفساد على الإقامة بها، وسلبت جميع أموال المفسدات، وحبس

(٨) بدائع الزهور لابن إياس المصري ج ١ ص ١٠٣.

(٩) اغانة الأمة بكشف الغمة للمقرئ ص ٧٠، ٧١.

(١٠) السلوك للمقرئ ج ١ ص ٤٣٧.

(١١) بدائع الزهور لابن إياس عدد ٨٧ طبعة النسخ ص ٦١.

حتى تزوجن ونفى كثير من المفسدين، وكتب إلى جميع البلاد بمثل ذلك»^(١٢)، وبالطبع فإن الفقر يلعب دوراً هاماً في انتشار الانحرافات وسوء الأحوال الاجتماعية وانتشار الخرافات والخزعبلات التي تجد تربة مناسبة تنمو فيها، بين عقول الفقراء وأحلامهم.

ومن المحتمل أن صورة سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مصر، قد انعكست في نفسية أصحاب الطريق فنجد مظهراً لذلك من خلال أدعيتهم، وأحزابهم المليئة بالعبارات التي تصور أحوالاً سيئة من ناحية، ومن ناحية أخرى تتضمن ما يثبت الطمأنينة في نفوس أصحابها الهلع والجزع، من أوضاع سياسية خارجية وداخلية يائسة ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ فالقلوب الواجفة المشتاقة إلى الطمأنينة تجد التعبير عن ذلك في الذكر بأكثر مما تجده في الفكر.

ولعل ذلك باعث نفسى على انتشار الذكر وطرقه، فالناس عادة تذكر الله كثيراً في أوقات المحن. ونجد أن اسم الجلالة المفضل في أوراد أصحاب الطرق الصوفية، والأكثر استعمالاً «يا لطيف».. ونحن كثيراً ما نقول «يا لطيف» في ساعات المحن والشدة والخوف والفرح.

وفي الحزب الصغير للدسوقي على المريد أن يردد لفظة «يا لطيف» ١٢٩ مرة ويقول الإمام الشاذلى في حزب البر: «اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث تعلم بما تعلم، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا تعلم بما لا نعلم، يا شديد البطش، يا جبار، يا قهار، يا حكيم، نعوذ بك من شر ما خلقت، ونعوذ بك من ظلمة ما أبدعت، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدر وأردت.. يا الله، يا الله، يا لطيف، يا رزاق». ونلمس تصويراً صادقاً لنفسية الإنسان المصرى في هذا الوقت من خلال الحزب الصغير للإمام البدوى. «اللهم اكفنيهم بما شئت، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم، وأدراً بك في نحورهم، بك أحاول وبك أقاتل، اللهم واقية كواقية الوليد^(١٣) بكهيعص^(١٤) كفيت. بحمعسق^(١٥) حميت فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

ملامح الحالة العلمية والثقافية والدينية في مصر في القرن السابع الهجرى:

نستطيع أن نقول إن القرن السابع الهجرى في مصر كان قرن التناقضات.. فمع تدهور الأحوال الاجتماعية، والاقتصادية في مصر في هذا القرن، كما ذكرنا فقد كان هذا القرن من جانب آخر من أثرى وأزهى عصور مصر، وأخصبها في مجال العلم، والثقافة والحياة الدينية، فكانت مصر في عصر المماليك ملتقى العلماء ورجال الفكر والدين «وخصوصاً بعد أن سقطت بغداد في يد التتار، فتطلع العلماء في جميع أقطار العالم الإسلامى إلى مهرب يلتجئون إليه فلم يجدوا غير مصر»^(١٦).

(١٢) السلوك للمقرئى ١٠ ج ١ ص ٥٧٨.

(١٣) أى احفظنى وارحمنى وابعد عني سوء وقنى بالوقاية والحماية التى تحفظ بها المولود الصغير.

(١٤) أول سورة مريم.

(١٥) أول سورة الشورى.

(١٦) تاريخ مصر الاجتماعى للدكتور أحمد زكى ص ١٦٧.

والحق يقال: إن القاهرة في عصر المماليك أصبحت مركز الإشعاع والنور والثقافة في كل أنحاء العالم الإسلامي «ورغم كثرة المظالم وفداحة المكوس فإن مصر نهضت نهضة علمية مباركة، وكان دافعها الأول غير العلماء وحصرهم على إعادة مجد الإسلام الذي بعثرته أيدي التتار ثم معاضدة الملوك والأمراء لرجال العلم وأهله»^(١٧).

ومن عوامل رقي الثقافة في مصر في هذا القرن، «غيره السلاطين والأمراء فقد كانوا يتعصبون للدين الإسلامي ويستमितون في الذود عنه»، وبالتالي فقد كانوا يكرمون رجال الدين وأهل العلم.. هذا وقد كان الأيوبيون والمماليك جميعا يعظمون العلماء ورجال الدين»^(١٨).

فمثلا كان الملك الكامل الأيوبي، «يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم وعنده شغف بسماع الحديث النبوي»^(١٩).

ويقول عنه صاحب وفيات الأعيان: وهو الذي أغرى يحيى بن عبد المعطى الزواوي صاحب الألفية في النحو بالقدوم إلى مصر، ف جاء إليها، وتصدر بجامع عمرو لإقراء الأدب، ورتب له الكامل جاريا كفاه»^(٢٠).

ويجب ألا ننسى العمل الذي قامت به الدولة الأيوبية، وهو طمس المذهب الشيعي في مصر، الذي حاولت دولة الفاطميين نشره بها، فعملت على نشر المذهب السني، وأنشأت من أجل ذلك المدارس والمساجد الكثيرة، فنجد أن «جملة المدارس المعروفة بمصر القاهرة في العصر الأيوبي أربع وعشرون مدرسة، منها ست مدارس خصصت للمذهب الشافعي، وثلاث للمذهب الحنفي، وثلاث للمذهب المالكي، وسبع لم تحدد مذاهب الدراسة بها ومدرسة واحدة للمذهبيين الشافعي والمالكي معا، وأخرى للمذهبيين الشافعي والحنفي وعلم القراءات، وثلاثة للمذهب المالكي وعلم النحو، ورابعة للحديث وخامسة للمذاهب الأربعة»^(٢١).

وإننا يجب ألا نغفل حق الدولة الأيوبية، في الاهتمام بنشر المذهب السني والاهتمام بالثقافة وبناء المدارس.

ويقال: «إنهم ساروا بمصر ودمشق سيرة نور الدين في فتح المدارس، وذلك ليوجهوا عقول الناس إلى التفكير السني بعد أن عاشت مصر، ودمشق زهاء قرنين في إطار التفكير الشيعي، وكانت مدارس الأيوبيين كثيرة العدد بحيث تمكنت من تحقيق أهدافها في وقت قصير؛ ويمتاز هذا العهد بأن الأمراء والأميرات والتجار وغيرهم من الأهليين حتى الخدم أسهموا في إنشاء المدارس ورعاية العلم»^(٢٢).

(١٧) المرجع السابق ص ١٨٠.

(١٨) كتاب ابن دقيق العيد للدكتور علي صافي ص ٤.

(١٩) كتاب السلوك للمقرئ ج ١ ص ٢٥٨.

(٢٠) وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٢٣٥ ذكره الدكتور أحمد بدوي في كتابه الحياة العقلية ص ٧.

(٢١) مساجد القاهرة ومدارسها: الجزء الثاني للدكتور أحمد فكري ص ٥٤، ٥٥.

(٢٢) كتاب التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبي ج ٥ ص ١٧٥.

ولا نستطيع أن ننكر أن الحياة الدينية في مصر في القرن السابع الهجرى نشطت وثمرت ثمرًا عظيمًا، «وجملة القول في الحياة الدينية في مصر أثناء القرن السابع الهجرى، أنها كانت عريضة عميقة التأثير، فقد غلبت على عقول جميع الأوساط وأفئدة مختلف الجماعات، وعلى عواطفهم ومشاعرهم بوجه عام» (٢٣).

هذه هي الملامح السريعة للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية في مصر في القرن السابع الهجرى... فما صلة هذا كله بالتصوف والطرق الصوفية في مصر، وانتشارها في القرن السابع الهجرى؟

هذا ما ستكشف عنه هذه الدراسة في نقاطها القادمة.. التي نبدؤها بالحديث عن:

التصوف في مصر في القرن السابع الهجرى:

قد لا أكون مغاليا إن قلت: إن القرن السابع الهجرى في مصر كان قرن التصوف والطرق الصوفية، فإذا قمنا بإحصاء المتصوفة الذين عاشوا في مصر خلال هذا القرن، وجدنا أنه يتميز عن أى قرن مر على مصر بظهور عدد كبير من المتصوفين، وسنلاحظ من خلال هذا الإحصاء أن كبار المتصوفين الذين عاشوا في مصر خلال هذا القرن معظمهم من المغرب، فمن رجال التصوف بمصر في هذا القرن؟ (٢٤).

١ - الحسن الصوفى: ابن الصوفى الكبير عبد الرحيم القناوى توفى الحسن الصوفى بقنا سنة ٦٥٥ هـ، وقد قارب الثمانين، أما والده عبد الرحيم القناوى (ت ٥٩٢ هـ)، فأصله من سبته، وقدم من المغرب، وأقام بمكة سنين، ثم قدم قنا وأقام بها إلى حين وفاته.

٢ - ابن الصباغ القوصى: تلميذ الشيخ عبد الرحيم القناوى توفى بقنا سنة ٦١٣ هـ.

٣ - يوسف بن محمد على بن أحمد الهاشمى أبو الحجاج المغاورى قدم من المغرب، وأقام بقنا إلى أن توفى بها، وصحب الشيخ أبا الحسن بن الصباغ ومات سنة ٦١٩ هـ.

٤ - الشيخ أبو العباس البصرى، أحمد بن محمد بن عبد الرحيم بن أبى بكر جزى الخزرجى الأنصارى الأندلسى توفى سنة ٦٣٢ هـ، ودفن بالقرافة.

٥ - يحيى بن موسى بن على القنائى يعرف بابن الخلاوى مات بقنا فى ذى القعدة عام ٦٢٥ هـ.

٦ - أبو الحجاج الأقصرى: الصوفى المعروف توفى سنة ٦٤٢ هـ بالأقصر.

٧ - نجم الدين أحمد بن أبى الحجاج الأقصرى: مات بالأقصر سنة نيف وثمانين وستمائة.

٨ - أبو السعود بن أبى العاشر بن شعبان بن الطيب الباذيوى. مولده بباز، بقرب واسط العراق، مات بالقاهرة سنة ٦٤٤ هـ ودفن بسفح المقطم.

(٢٣) كتاب الأدب الصوفى في مصر في القرن السابع الهجرى للدكتور على صافى حسين ص ١٨.

(٢٤) اعتمدت في ذكر هؤلاء الصوفية على كتاب حسن المحاضرة للسيوطى.

- ٩ - أبو بكر بن شافع القناني: صاحب الشيخ أبا الحسن بن الصباغ توفي سنة ٦٤٧ هـ.
- ١٠ - إسماعيل بن إبراهيم بن جعفر المنفلوطي ثم القناني الشيخ علم الدين مات بقنا سنة ٦٥٢ هـ.
- ١١ - إبراهيم بن علي بن عبد الغفار بن أبي القاسم بن محمد بن مصل ابن أبي الدنيا الأندلسي ثم القناني... مات بقنا سنة ٦٥٦ هـ.
- ١٢ - الشيخ أبو الحسن الشاذلي مات سنة ٦٥٦ هـ (٢٥).
- ١٣ - القباري: أبو القاسم بن منصور يحيى المالكي الإسكندري المعروف بالقباري مات بالإسكندرية سنة ٦٦٢ هـ.
- ١٤ - الجنيد بن مقلد السهمودي مات بمصر سنة ٦٧٢ هـ.
- ١٥ - الشاطبي: أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري نزيل الإسكندرية مات سنة ٦٧٢ هـ.
- ١٦ - أبو العباس المثلث أحمد بن محمد، كان مقبياً بالصعيد. مات سنة ٦٧٢ هـ.
- ١٧ - مسلم البرقي. صاحب الرباط بالقرافة مات سنة ٦٧٣ هـ.
- ١٨ - سيدي أحمد البدوي. توفي سنة ٦٦٧ هـ (٢٦).
- ١٩ - الشيخ أبو العباس المرسى تلميذ الشاذلي الكبير توفي سنة ٦٨٦ هـ.
- ٢٠ - الجعبري أبو اسحاق إبراهيم بن معضاد توفي سنة ٦٨٧ هـ.
- ٢١ - سيدي إبراهيم الدسوقي توفي سنة ٦٦٩ هـ (٢٧).
- ٢٢ - الإمام أبو محمد بن حجرة المعري توفي بمصر سنة ٦٩٥ هـ.
- ٢٣ - الشيخ كمال الدين بن عبد الظاهر بن محمد بن جعفر الهاشمي الجعفري القوصي توفي سنة ٧٠١ هـ.
- لقد ذكر السيوطي في كتابه حسن المحاضرة حوالي ٩١ ولياً صوفياً من الصوفية الذين ظهوروا في مصر منذ القرن الأول الهجري، حتى نهاية القرن التاسع الهجري، وبالطبع فإنه لم يذكر كل الصوفية الذين ظهوروا في مصر خلال هذه القرون، ومن هنا فإن إحصائيته نسبية إلى حد كبير.
- لكن من خلال هذا الإحصاء التقريبي، يتضح لنا كيف كان الصوفية في مصر في القرن السابع الهجري أضعاف الصوفية الذين ظهوروا في مصر في أي قرن من القرون السابقة، أو اللاحقة حتى القرن العشرين.
- ونجد أيضاً أن هناك نسبة من هؤلاء الصوفية قدموا من المغرب والأندلس خصوصاً كبار هؤلاء الصوفية مثل (البدوي - الشاذلي - أبو العباس المرسى - ومن قبل عبد الرحيم القناني).

(٢٥) سنقوم بدراسة الشاذلي في المباحث القادمة إن شاء الله.

(٢٦، ٢٧) سنقوم بدراسة البدوي والدسوقي في المباحث القادمة إن شاء الله.

ونلاحظ أن السيوطي قد أغفل عددًا من الصوفية الذين عاشوا في مصر في هذا القرن مثل:

- ١ - أبو العباس البوني (ت ٦٢٢ هـ).
- ٢ - عبد الله بن صعود بن مطر الروي ت ٦٣٥ هـ، من تلامذة أبي النجيب السهروردي.
- ٣ - أبو الحسن علي بن عبد الله الششتري، أصله من ششت من أعمال وادي أسن بالأندلس، وكان من الأسرة المالكة بها، وهاجر إلى مصر واستقر بدمياط ت ٦٦٨ هـ.
- ٤ - كمال الدين أحمد بن علي القسطلاني المالكي ت ٦٣٦ هـ، من أجل تلاميذ أبو عبد الله القرشي الصوفي.

٥ - أبو الغنائم نجم الدين محمد المطوعي، من تلامذة داود الأعزب ت ٦٨٤ هـ.

٦ - أبو عبد الله السائح المغربي ت ٦٧٤ هـ.

٧ - قطب الدين القسطلاني ت ٦٨٦ هـ.

من خلال هذه الاحصائية النسبية، فإنه يتضح لنا عدم مبالغتي حين قلت: إن القرن السابع الهجري في مصر كان قرن التصوف، كما كان معظم متصوفته من المغاربة.

لكن كيف نفسر السبب في قدوم متصوفة المغرب إلى مصر، والهجرة إليها، ونشر تصوفهم وطرقهم فيها.

يقول بعض الباحثين: «يبدو أن التصوف المغربي كان أقوى تأثيراً في العالم الإسلامي، بدليل أنه في القرن الخامس الهجري قامت دولة المرابطين في المغرب العربي، وهي الدولة التي أسسها عبد الله بن ياسين (ت ١٥٠٩ م)، على أسس من التصوف الروحي والجهاد الديني، ولها صفحات مشرقة في الدفاع عن كيان المسلمين بالأندلس وشمال أفريقيا، ذلك أن عبد الله بن ياسين أقام دولته على أسس من التقشف، والزهد والعبادة، فدعا أصحابه إلى الإقامة في الربط لعبادة الله بعيداً عن حياة الفساد، ومن ثم سميت الدولة بدولة المرابطين، وحدث في القرن السادس الهجري (١٢ م)، أن زالت دولة المرابطين في المغرب العربي وحلت محلها دولة الموحدين»^(٢٨).

ومن الطبيعي أن يفكر متصوفة المغرب وعلمائهم في القرنين السادس، والسابع الهجريين في الهجرة إلى القاهرة التي وجدها تربة خصبة لبذر أفكارهم الصوفية، كما هاجر إليها أيضاً على ما ذكرنا سابقاً العديد من علماء بغداد والشام، ولكن لسبب آخر وهو سقوط بغداد في أيدي المغول، والحروب التي استمرت طويلاً بين الصليبيين وبلاد الشام، وكانت مصر هي التي تحملت العبء الأكبر في الدفاع عن الإسلام في هذا القرن، حين خلصت العالم الإسلامي من المغول، وانتصرت على الصليبيين وردتهم على أعقابهم خاسرين.

قرن الطرق الصوفية:

حين قلت: إن القرن السابع الميلادي في مصر، كان قرن التصوف، أعنى بالذات التصوف العملي، الذي تمثله الطرق الصوفية التي انتشرت في هذا القرن، ونمت نمواً كبيراً. ولقد راودتني فكرة استنبطتها من خلال عرضي لصورة الحياة الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية لمصر في القرن السابع الهجري. ومؤدى هذه الفكرة أنه قد يكون مما ساعد على انتشار الطرق الصوفية في مصر انتشاراً عجيلاً، واندفاع عشرات الألوف من المصريين للانضمام تحت لواء هذه الطرق، هو تشجيع الحكام أنفسهم الحركات الطرق الصوفية، ليشغلوا الشعب المصري عن التفكير في أحوال البلاد... فبدلاً من أن ينشغل الإنسان المصري بالتفكير في ظروفه الاجتماعية والاقتصادية السيئة - بدلاً من - أن يفكر في فقره وبلائه... بدلاً من أن يفكر في طريقة للخلاص من وضعه السيئ بالثورة على الحاكم، فإن الحاكم نفسه يعمل على شغل فكره من خلال تشجيعه إلى الانضمام إلى إحدى الطرق الصوفية، فيجد عالمه وخلاصه في رحاب الطريق وهكذا انشغل المصريون كلهم في هذه الحقبة من الزمن بالطرق الصوفية وتركهم الحكام.. وانشغلوا هم في لهوهم وحروبهم.. يفرضون على الشعب المزيد من الضرائب من أجل حروبهم الكثيرة ومتعمهم الزائدة عن الحد.

ولقد مر بنا كيف عاش هذا الشعب ظروفاً ضارية خلال هذا القرن من الزمان، مما جعله يبحث عن طريق للتخلص من الانقسام النفسى، والتمزق الداخلى الذى يعيشه، فوجد فريق من هذا الشعب الذى تسكن في أعماقه منذ القدم وتتغلغل في داخله روح الدين أن الطريق هو طريق الله، ولا بد لمن يريد الوصول إلى الله، من مدارج يرقاها في سيره، في رحاب طريقة من الطرق التي تهدي إلى الله. وإذا كان القرن السابع الهجري في مصر، يمثل في أغلب فتراته اضمحلالاً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، إلا أنه كان عصر انتشار الطرق الصوفية، ففيه ظهرت أكبر الطرق الصوفية: «البدوية والشاذلية، والدسوقية». وازدهرت فيه وقويت طريقتا: الرفاعية، والقادرية.

مما يجعلنى أقول بحذر شديد، حتى أوضح هذه الفكرة^(٢٩) إنه يحتمل مع وجود تدهور في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لدى شعب من الشعوب أن يبدأ انسحاب الناس، وتلمس أثر الهزيمة واضحاً في فكرهم، بعضهم يهرب من الحياة منعزلاً في صومعة، يعبد ربه بعد أن أخفق في الحياة التي أجبرته ظروفها السياسية والاجتماعية والاقتصادية على اعتزالها، والانسحاب من نشاطاتها. ويرى بعض الباحثين «هيلر» أن ذبوع التصوف يصحب تدهور الحضارات المتطورة في آخر مراحلها، ويرى أنه في مثل هذه الأوقات - كما كان في الهند القديمة، وفي العالم الروماني والإغريقي، وفي القرون الوسطى في ألمانيا، وفي القرنين السادس والسابع عشر في فرنسا، في مثل هذه الأوقات تحبو الرغبة الصحيحة في الحياة لدى بعض الموهوبين ذوى العقول النبيلة والمشارع المرفهة، وينقطع الرجاء

(٢٩) سأوضح هذه الفكرة والفكرة المقابلة لها لدى الدكتور محمد كمال جعفر.

في حياة مستقبلة ممتعة، وتهزم القيم الملموسة والأهداف والأعباء التي تفرضها الحياة، إن كره هؤلاء للعالم وللحضارة يأخذ بجماع قلوبهم، وإن رغبتهم المتأججة في الخير المطلق، تدفعهم بلا رحمة إلى التمرد، لتخليص أنفسهم، وإطلاق حريتهم من هذا العالم والحضارة والمجتمع.

ويشرح الدكتور جعفر هذا الرأي قبل أن يعارضه فيقول: «والذي يفهم من هذا الرأي ببساطة، هو أن نضج التصوف، وتطوره يصاحب دائما تدهور الحضارة» أي أنه لا يمكن أن تكون هناك حضارة متقدمة وزاهية يصاحبها تصوف ناضج مكتمل» (٣٠).

ويقول: «قد يضيف مثل هذا الباحث إلى ذلك تعليلاً عقلياً يحسبه مرضياً، وهو أن الرجل التقى الورع بما أنه غير راض عن العالم، وعظمته وبعده، يشعر أنه غريب على هذه الأرض، وأنه مشدود إلى بدنه الذي يعتبره سجنًا وقبراً، ومن ثم تهفو هذه النفس السجينة إلى التخلص والحرية، لتحلق في الآفاق السماوية الإلهية التي منها أتت، ويرى هذا التقى أن الوسيلة إلى ذلك ليست إلا تخليص هذه النفس من شباك هذا العالم الخارجي، والانطلاق أو الانسحاب داخلياً إلى باطن أعماق النفس» (٣١).

ويحاول الباحث أن يبين الخطأ الذي تردت فيه هذه الفكرة بإلقاء الضوء على الحضارة الإسلامية، والتصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين - التاسع والعاشر الميلاديين - وفي بادئ الأمر يتساءل «ماذا يقصد الباحث بلفظ الحضارة؟ وماذا يقصد بالانحطاط هذه الحضارة، إن وصفه للساخطين على هذه الحضارة بأنهم ذوو عقول نبيلة، وبأنهم موهوبون أتقياء، قد يفهم منه السبب في هذا السخط، وهو انحطاط المستوى الأخلاقي أو الروحي في الأمة التي يعيشون فيها، وتلك وظيفة سامية يجب على الموهوبين القيام بها، أما الجانب السلبي الذي نلاحظه في بعض هؤلاء الموهوبين، فإن بعضه يرجع إلى غلبة ظاهرة الانحطاط الذي يستعصى مقاومته، ومن ثم قد يتمسك هؤلاء أنفسهم ومن يستطيعون التأثير فيه، ويحوى التاريخ قصصاً لأفراد، تركوا ملكهم وانسلخوا من ثرواتهم ليعيشوا عيشة الشظف والتقص، وقد أدخلهم التاريخ وأضفى عليهم من الخلود مالم يكونوا يحملون به، لو أنهم احتفظوا بثرواتهم وعروشهم» (٣٢).

وأنا أترك صاحب هذا الرأي يتابع تفنيده لهذه الفكرة كما ذكرنا سابقاً بإلقائه الضوء على الحضارة الإسلامية في أوج عظمتها وبعد ذلك نناقش هذه المسألة.

يقول: «على أننا نلاحظ - فيما يمس حضارتنا الإسلامية التي بلغت أوجها في القرنين - الثالث والرابع الهجريين - التاسع والعاشر الميلاديين، أن نضج التصوف وتطوره وبلوغه مرحلة تدنو إلى الكمال يمكن ملاحظته في خلال هذه الفترة أيضاً، إن الحضارة الإسلامية سارت في تطورها جنباً إلى جنب مع تطور التصوف ونضجه» (٣٣).

(٣٠) التصوف طريقاً ومنهجاً للدكتور جعفر ص ٢٩.

(٣١) المرجع السابق ص ٢٩.

(٣٢) المرجع السابق ص ٣٠.

(٣٣) نفس المرجع ص ٣١.

وإننى أقدر رأى الدكتور جعفر فى تفنيده فكرة «هيلر» ومن سار نحوه من الذين قالوا: إن انتشار التصوف يصحبه تدهور الحضارات المتطورة فى آخر مراحلها. وذلك بذكر الدكتور جعفر حجته، بأن نضج التصوف وقوته الحقيقية كان فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، وكان مواكباً لنضج الحضارة الإسلامية وعظمتها فى هذين القرنين، غير أننى أقول: إن رأى الدكتور جعفر قد ينطبق على التصوف النظرى الفردى، أما رأى «هيلر» فيكاد ينطبق على التصوف العملى الذى تمثله الطرق الصوفية. ولقد برزت الطرق الصوفية فى مصر فى القرن السابع الهجرى، وهذا القرن على ما بينا كان عصر انحطاط سياسى واجتماعى واقتصادى، فى مصر^(٣٤)، وعلى قدر ما كان عصر تدهور وانحطاط إلا أنه كان فى الوقت نفسه يمثل قمة ازدهار الطرق الصوفية، وانضمام عشرات الألوف من المصريين إليها، وهذا يعنى أن التصوف - خصوصاً التصوف العملى الذى تمثله الطرق الصوفية قد يزدهر خلال عصور الضعف السياسى ازدهاراً بارزاً.

مثال ذلك ما أوضحناه: ازدهاره فى القرن السابع الهجرى فى مصر وهو عصر ضعف، وانحلال سياسى واجتماعى ليس فى مصر فحسب، بل فى سائر العالم الإسلامى، ومن الملاحظ أيضاً أنه فى هذا القرن ظهر تصوف نظرى فى بلاد الأندلس، فوجد خلاله بعض أبرز فلاسفة التصوف النظرى مثل: «عبد الحق بن سبعين»^(٣٥) و«محيى الدين بن عربى»^(٣٦)، وفى مصر ظهر الصوفى الكبير شاعر الحب الإلهى عمر بن الفارض^(٣٧).

وإن كان لنا أن ندلى بدلونا فى هذه النقطة، فقد يكون من الواضح أننى مع القائلين بازدهار التصوف خلال عصور الضعف.

أما وقد ذكرنا أنه ازدهر وبلغ أوجه فى ظل أوج الحضارة الإسلامية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، كما ازدهرت الطرق الصوفية فى عصور الضعف.

إذن فإننا نرى أن التصوف الفردى النظرى قد واكب الحضارة الإسلامية فى أوجها، أما التصوف العملى، «تصوف أصحاب الطرق الصوفية»، فقد جاء مواكباً لضعف الحضارة الإسلامية، فالحق «أن الرغبة فى العزلة والعودة إلى الله لا تقوى إلا فى ظلال الضعف.. فقليل من الناس يتذكر الله فى قوته وصحته وشبابه وثرائه، وكثيراً ما يذكر الناس ربه فى ضعفهم ومرضهم وشيخوختهم وفقرهم»^(٣٨).

(٣٤) من الملاحظ أن العالم الإسلامى منذ القرن الخامس الهجرى قد أصيب بضعف شديد نتيجة ضعف الحكام وانقسام الدولة الإسلامية إلى عدة دويلات ضعيفة وظهور قوى جديدة كالغول التى هدت أمن هذه الدويلات وأضعفتها.

(٣٥) عبد الحق بن سبعين: صوفى أندلسى ولد بمرسيا عام ٦١٣ هـ. وهو صاحب فلسفة الوحدة المطلقة.. تولى بمكة عام ٦٦٧ هـ.

(٣٦) محيى الدين بن عربى: فيلسوف وحدة الوجود: ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ. ومات بدمشق سنة ٦٣٨ هـ.

(٣٧) عمر بن الفارض: سلطان الماشقين: ولد بالقاهرة عام ٥٧٦ هـ. وتوفى عام ٦٣٢ هـ.

(٣٨) كتاب السيد البدوى: للدكتور سعيد عاشور ص ٢٨.

وقد تكون المرارة والظروف الضارية التي عاشها الإنسان المصرى فى هذا القرن، جعلته يشعر أن لا ملجأ إلا الله، وقد يكون ذلك من خلال الإقبال عليه من خلال طريقة من الطرق الصوفية. ونحن لا نشك «فى أن المصريين أحسوا فى القرن السابع الهجرى بنفس شعور المرارة والأسى، الذى أحس به عامة المسلمين عندئذ فى مشارق الأرض ومغاربها، فها هم التتار يضربون الوطن الإسلامى فى أقصى مغربه، وبين هذا وذاك يحرص الصليبيون على أن يصيبوا من المسلمين مقتلاً بطعنهم فى مكان هو بمثابة القلب من وطنهم الكبير، وهذا ما جعلهم يفكرون فى النجاة بالرجوع إلى الله، وفى وسط التصوف متنفساً للتعبير عن آلامهم، فازداد عدد المقبلين على التصوف زيادة كبيرة»^(٣٩). وعلى ذلك: فنحن نرى أن التصوف العملى «تصوف الطرق الصوفية»، قد ازدهر، ونما فى عصور ضعف الأمة الإسلامية خصوصاً منذ القرن السابع الهجرى وما تلاه من عصور تميزت بالضعف وتدهور الأمة الإسلامية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

وأهم أصحاب الطرق الصوفية فى مصر فى القرن السابع الهجرى.

- ١ - سيدى أحمد البدوى صاحب الطريقة البدوية.
- ٢ - سيدى أبو الحسن الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية.
- ٣ - سيدى إبراهيم الدسوقي صاحب الطريقة الدسوقية.